

**ملحمة جلجامش**،<sup>[1]</sup> قصيدة ملحمية من آداب بلاد الرافدين القديمة وتُعدّ أقدم الأعمال الأدبية العظيمة ، يبدأ التاريخ الأدبي لملحمة جلجامش بخمس قصائد سومرية عن (بل كاميش / كلكاميش)، ملك الوركاء، يعود تاريخ الملحمة إلى عصر سلالة أور الثالثة. استُخدمت هذه القصص المتفرقة فيما بعد كمصدر مرجعي لقصيدة ملحمية مجمعة في اللغة الأكديّة. تحمل أقدم نسخة متبقية من تلك الملحمة المسمّاة اسم «البابلي القديم»، ويعود تاريخها إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، لم يتبقّ من تلك القصيدة سوى بضعة ألواح طينية. أما النسخة التالية «القياسية» التي جمعها سين-لّقي-ونيني يعود تاريخها إلى ما بين القرنين الثالث عشر والعاشر قبل الميلاد وتحمل الاسم (هو الذي رأى )،

تقريباً تمّ استرجاع ثلثي هذه النسخة ذات الألواح الطينية الاثني عشر. اكتُشفت بعض النسخ الأفضل حالاً في أنقاض مكتبة آشور بانيبال الملكية من القرن السابع قبل الميلاد.

يدور القسم الأول من القصة عن جلجامش، ملك الوركاء، وإنيكدو، وهو رجل جامع خلقته الآلهة لوضع حدّ لطغيان جلجامش على شعب الوركاء. بعد أن يتأنس إنيكدو عبر إقامته علاقة جنسية مع مومس، ينطلق إلى مملكة الوركاء، حيث يطلب تحديّ جلجامش لاختبار مقدار قوته. يفوز جلجامش في التحدي، ومع ذلك، يصيح الرجلان صديقين، وينطلقان معاً في رحلة تدوم لستة أيام إلى غابة الأرز السحرية، حيث يخططان لقتل الحارس، خومبابا الرهيب، وقطع شجرة الأرز المقدسة.<sup>[2]</sup> تُرسل الإلهة عشتار ثور الجنة لعقاب جلجامش على رفضها التقرب منه. يقتل جلجامش وإنيكدو ثور الجنة، وعلى إثر ذلك يتخذ الآلهة قرارهم بالحكم على إنكيدو بالموت، ويقتلونه.

في الجزء الثاني من الملحمة، يدفع الأسي على موت إنكيدو بجلجامش إلى القيام برحلة طويلة محفوفة بالمخاطر لاكتشاف سرّ الحياة الأبدية. في نهاية المطاف يكتشف أن «الحياة التي تسعى في إثرها لن تنالها أبداً. لأن الآلهة عند خلقها البشر، جعلت الموت من نصيبهم، واستأثرت بالخلود نصيباً لها وحدها.

على أيّ حال، فقد طارت شهرة جلجامش في الأفاق، وعمرت طويلاً بعد موته، بسبب مشاريعه العمرانية العظيمة، ونقله لنصيحة أسدتها له سيدوري، وما أخبره إياه الرجل الخالد أوتنابيشتم عن الطوفان العظيم؛ ولقيت قصة الملحمة اهتماماً متزايداً وترجمت إلى العديد من اللغات وتظهر في العديد من الأعمال الأدبية الشهيرة.

تبدأ الملحمة بالحديث عن جلجامش، ملك أورك - الوركاء الذي كانت والدته إلهة ووالده بشرا فانيا ولهذا قيل بأن ثلثيه إله وثلث الباقي بشر. وبسبب الجزء الفاني منه يبدأ بإدراك حقيقة أنه لن يكون خالداً. تجعل الملحمة جلجامش ملكاً غير محبوب من قبل سكان أورك؛ حيث تنسب له ممارسات سيئة منها ممارسة تسخير الناس في بناء سور ضخم حول أورك العظيمة.

ابتهل سكان أورك للآلهة بأن تجد لهم مخرجا من ظلم جلجامش فاستجابت الآلهة وقامت إحدى الإلهات، واسمها أرورو، بخلق رجل من الطين وحي كان الشعر الكثيف يغطي جسده ويعيش في البرية يأكل الأعشاب ويشرب الماء مع الحيوانات؛ أي أنه كان على النقيض تماما من شخصية جلجامش. ويرى بعض المحللين أن هناك رموزا إلى الصراع بين المدنية وحياة المدن الذي بدأ السومريون بالتعود عليه تدريجيا بعد أن غادروا حياة البساطة والزراعة المتمثلة في شخصية أنكيدو.

كان أنكيديو يخلص الحيوانات من مصيدة الصيادين الذين كانوا يقتاتون على الصيد، فقام الصيادون برفع شكواهم إلى الملك جلجامش؛ فأمر إحدى خادمتي المعبد بالذهاب ومحاولة إغراء أنكيديو ليمارس الجنس معها؛ وبهذا تبتعد الحيوانات عن مصاحبة أنكيديو ويصبح أنكيديو مروضاً ومدنياً. حالف النجاح خطة الملك جلجامش، وبدأت خادمة المعبد - وكان اسمها شمخات، وتعمل خادمة في معبد الآلهة عشتار - بتعليم أنكيديو الحياة المدنية؛ ككيفية الأكل واللبس وشرب النبيذ، ثم تبدأ بإخبار أنكيديو عن قوة جلجامش وكيف أنه يدخل بالعروضات قبل أزواجهن. ولما عرف أنكيديو بهذا قرر أن يتحدى جلجامش في مصارعة ليجبره على ترك تلك العادة. يتصارع الاثنان بشراسة؛ فهما متقاربان في القوة، ولكن الغلبة في النهاية كانت لجلجامش، حيث اعترف أنكيديو بقوة جلجامش، وبعد هذه الحادثة يصبح الاثنان صديقين حميمين.

يحاول جلجامش دائماً القيام بأعمال عظيمة ليبقى اسمه خالداً؛ فيقرر في يوم من الأيام الذهاب إلى غابة من أشجار الأرز؛ فيقطع جميع أشجارها، وليحقق هذا عليه القضاء على حارس الغابة، وهو مخلوق ضخم وقبيح اسمه خومبابا. ومن الجدير بالذكر أن غابة الأرز كان المكان الذي تعيش فيه الآلهة ويعتقد أن المكان المقصود هو غابات أرز لبنان.

قصة الطوفان كما يرويها « اوتو - نبشتم » لجلجامش :

أجاب جلجامش « اوتو نبشتم » القاصي وقال له :

« ها اني أنظر اليك يا ( اوتو - نبشتم ) فلا أرى هيئتك مختلفسة  
فانت منلي لم تبدل بل انك تشبهني + لقد تصورتك في قلبي كاملا كالبطل  
على أهبة القتال ، فاذا بي أجدك ضعيفا مضطجعا على ظهرك + فقل لي كيف  
دخلت في مجمع الآلهة ونلت الحياة الخالدة ؟

فأجاب « اوتو - نبشتم » جلجامش وقال له :

« يا جلجامش سأكشف لك عن سر محجوب + سأطلعك على سر  
من أسرار الآلهة : شروباك ، المدينة التي تعرفها والواقعة على نهر الفرات  
قد تقادم العهد عليها ، وكان الآلهة يعيشون فيها ، وقد حملتهم قلوبهم  
على أحداث طوفان ، فاجتمعوا وكان معهم أبوهم « آنو » ، و « انليل »  
البطل مشيرهم ، ونورتا مساعدهم ووزيرهم +++ وكان حاضرا معهم  
« نن - ايتكى - كو » ، أي « ايا » فنقل كلامهم الى كوخ القصب  
وخاطبه :

يا كوخ القصب ! يا كوخ القصب ! اسمع يا كوخ وافهم يا حائط +  
يا رجل « شروباك » يا ابن اوبار - توتو » ، قوض بيتك وابن لك  
فلكا + تجل عن مالك وإطلب النجاة + انبذ الملك وانج بحياتك ، واحمل  
في السفينة بذرة كل ذي حياة + والسفينة التي ستبني عليك أن  
تضبط مقاسها + ليكن عرضها مساويا لطولها ، واختمها جاعلا اياها مثل  
مياه ال « أيسو » + ولما ادرك « اوتو - نبشتم » ذلك أجاب « ايا » انه

سيصدع بأمره ، ولكن ما عساه أن يقول لسكان المدينة ، فأجابه أن يقول لهم ان الآله « انليل » يفضضه فلا يستطيع العيش في مدينتهم بل انه سينزل الى مياه ال « أبسو » ويعيش مع الآله « ايا » وموه عليهم أو لمح لهم بقرب حدوث الطوفان بطريق التورية ، فساعداه أهل المدينة في بنساء السفينة التي أكملها في مدى سبعة أيام وجعلها على هيئة مكعب سعته نحو ( ٢١٦٠٠٠ متر مكعب ) ، وجعلها من ستة طوابق تحتانية وقسم ارضيتها الى تسعة أقسام وجعلها بكل ما يحتاج اليه من مؤن ومتاع وكل ما عنده من المخلوقات الحية وجميع أهله وذوي قرياه .

ويواصل « اوتو - نبشتم » روايته فيقول : « عين لي الآله ( شمش ) موعدا بقوله : « حينما ينزل الموكل بالعواصف أمطار المسوت والهلاك في المساء فأدخل السفينة وأغلق بابك » . ولما حل أجل الموعد المعين سقط المطر المهلك « فولجت في السفينة واغلقت بابي ، ولما ظهرت أنوار السحر علت من الأفق البعيد ( من أسس السماء ) غمامة ظلماء ، وفي داخلها أرعد الآله « أدد » ، وكان يسير أمامه رسولا « شالات » و « خاتيش » وهما يندران في السهول والجبال ، ونزع الآله « ايراكال » الأعمدة<sup>(\*)</sup> ثم أعتمه الآله « نورتا » فأطلق الرعود وبشق السدود . ورفع آلهة الانوناكي المشاعل وجعلوا الارض تلتهب بأضوائها ، ولكن رعود الآله « أدد » بلغت عنان السماء فأحالت كل نور الى ظلمة ، وحطمت الارض الفسيحة كما تحطم الجرة . وظلت زوابع الرياح الجنوبية<sup>(\*\*)</sup> تهب يوما كاملا وازدادت شدة حتى غطت الجبال وفكت بالناس كأنهم

الحرب العوان ، وصار الاخ لا يبصر أخاه ، والساس لا يميزون من السماء \* وحتى الآلهة ذعروا من عباب الطوفان فهربوا وعرجوا الى سماء « آنو » \* « لقد استكان الآلهة وربضوا كالكلاب خارج الجدار » \* وصرخت عشتار ( كما تصرخ ) المرأة ساعة الولادة \* انتحبت سيدة الآلهة وبكت بصوتها الشجي : واحسرتاه ! لقد عادت الايسام الاولى الى طين لانني نطقت بالشر في مجمع الآلهة وسلطت الدمار على خلقي \* لقد ملأوا اليم كبيض السمك \* \* \* \* \* ومضت ستة أيام وسبع ليال ولم تزل الزوابع تعصف ، وقد غطت البلاد ، ولما حل اليوم السابع خفت زوابع الطوفان في شدتها وهدأ اليم وسكنت العاصفة وغيض عباب الطوفان ، وتطلعت الى الجو فرأيت السكون عاما \* فتحت كوة طاقتي فسقط النور على وجهي ، ورأيت البشر وقد استحالوا جميعا الى طين \* \* \* \* \* فسجدت وبكيت وانهمر الدمع على وجهي \* \* \* \* \* واستقر الفلك على جبل « نصير » (٣) ، وضبط جبل نصير السمية ولم يدعها تجري \* ولما حل اليوم السابع أخرجت حمامة واطلقتها فطارت الحمامة ثم عادت لانها لم تجد موطئا يحط فيه ، واطلقت السنوتو فطار السنوتو ثم عاد لانه لم يجد موطئا يحط فيه \* وأخيرا أطلقت غرابا فذهب الغراب (\*) ولما رأى المياه قد انحسرت حام وأكل

وحط ولم يعد لي . وعند ذاك اخرجت كل ما في السفينة الى الرياح  
الاربع وقربت القرايين وسكبت الماء المقدس على قمة الجبل ونصبت  
سبعة وسبعة قدور للقرايين(\*) وكدست اسفلها القصب والاس والارز  
فشم الآلهة نذاهها . وتجمعوا حولها كأنهم الذباب ولما حضرت الآلهة  
« عشتر » رفعت عقد الجواهر الذي صاغه لها « أنو » وقالت : انتم  
أيها الآلهة الحاضرون ، كما انني لانسى عقد اللازورد هذا الذي في  
جيدي فساظل أذكر هذه الايام(\*\*) ولن اتساها أبدا . ليتقدم الآلهة الى  
القرايين ، أما انليل فحذار ان يقترب منها لانه لم يتر و فاحدث الطوفان ،  
وأسلم خلقي الى الهلاك . . ولما جاء انليل وأبصر السفينة غضب على  
الآلهة وقال : « عجبا كيف نجت نفس واحدة وكان المقدر أن لا ينجو  
بشر من الهلاك؟ ففتح «نورتا» فاه واجاب «انليل» : «من ذا الذي يستطيع  
أن يقوم بهذا الامر غير (ايا)» . . . . . وعند ذاك قال «ايا» مخاطبا انليل :  
« أيها البطل ! أنت احكم الآلهة ، فكيف لم تبصر فاحدثت الطوفان ؟ حمل  
صاحب الخطيئة وزر خطيئته والمعتدي اثم اعتدائه ، ولكن ارحم في  
العقاب لئلا يمعن في الشر . ولو انك بدلا من احدائك الطوفان سلطت  
السباع على الناس فقللت من عددهم ، ولو انك بدلا من الطوفان سلطت

الذئاب عليهم فقلت من عددهم ، او احللت القحط في البلاد فأهلك  
الناس . أما أنا فلم افش سر الآلهة ولكني جعلت « أترا - حاسن » (\*)  
يرى رؤيا فأدرك سر الآلهة ، والآن تدبر أمره وقرر مصيره ، « وعندئذ  
هدأ «انليل» ولان وصعد فوق السفينة وامسك بيدي واركبني معه  
واركب معي زوجي وجعلها تسجد بجانبني ووقف ما بيننا ولمس ناصيتينا  
وباركنا قائلاً : « لم يكن اوتو - نبشتم قبل الآن سوى أحد البشر ،  
ولكنه منذ الآن سيكون هو وزوجه مثلنا نحن الآلهة ، وسيعيش «اوتو-نبشتم»  
بعيدا عند قم الانهار » ثم أخذوني وزوجي واسكنوني عند قم الانهار .  
والآن يا جلجامش من سيجمع الآلهة من اجلك لتسال الحياة  
الخالدة التي تشدها ؟ تعال امتحنك : لانتم ستة أيام وسبع ليال . ولكن  
وهو لا يزال قاعدا عند «اوتو - نبشتم» اذا بسنه من النوم تسلط عليه ،  
فالتفت « اوتو - نبشتم » الى زوجته وقال لها : « انظري وتألمي هذا الانسان  
القوي الذي ينشد الحياة قدم غلبه النوم » . فاجابته زوجته أن يوقف الرجل  
ويجعله يعود ادراجه من حيث أتى ، ولكن « اوتو - نبشتم » حذر  
امراته قائلاً : « لما كان الخداع سمة البشرية فانه سيخدعك . فأخبرني  
له أرغفة من الخبز وضعها عند رأسه ، والايام التي ينام فيها أشربها على  
الجدار ، . فخبزت له سبعة أرغفة ووضعتها عند رأسه وأشرت في الجدار  
الايام التي نامها : يبس الرغيف الاول ، وتلف الرغيف الثاني ، والثالث  
لم يزل طريا ، وابيضت قشرة الرغيف الرابع . . . ولما كان الرغيف  
السابع لا يزال على الجمر لمس « اوتو - نبشتم » جلجامش فاستيقظ  
وقال له : « لم تكذ تأخذني سنة من النوم حتى لمستني فايقظتني » فاجابه

« اوتو - نبشتم » : « يا جلجامش عند ارغفتك ينبثك المؤثر على الحائط عدد الايام التي نمتها » \* وعندئذ قال جلجامش لاوتو - نبشتم وهو يائس : ماذا عساي أن افعل ، والى أين أوجه وجهي ؟ ها ان المتكلم ( الموت ) يقيم معي » \* فأمر « اوتو - نبشتم » ملاحه « اور - شناني » أن يأخذ جلجامش الى موضع الاغتسال لينظف جسمه ويبدل ملابسه الوسخة وان يأخذه معه من بعد ذلك الى مدينته « اوروك » \* وبينما كان الاثنان يهمنان بركوب السفينة في طريق العودة تشفعت له امرأة « اوتو - نبشتم » عند زوجها ان لا يدعه يرجع الى بلاده خائبا \* وعندئذ كشف « اوتو - نبشتم » لجلجامش عن سر نبات عجيب ينبت في أعماق البحر وانه مثل الورد ذو شوك ، وذو خاصية سحرية في تجسديده الشباب \* فربط جلجامش برجليه احجارا وغاص الى الاعماق وعثر على ذلك النبات ، وفرح وقال لرفيقه الملاح : « يا أور - شناني ان هذا نبات عجيب يستطيع أن يطيل به المرء حياته ، وسأحملة معي الى « اوروك » وأشرك معي الناس ليأكلوه وسيكون اسمه : « يعود الشيخ الى صباه كالشباب » ، وأنا سأأكل منه ( في أواخر أيامي ) حتى يعود الي شبابي » \* وهكذا شرع الرجلان بالعودة ، ولكنهما توفيا من بعد ثلاثين ساعة مضاعفة ليمضيا الليل ، وأبصر جلجامش بركة ماء باردة فنزل ليغتسل في مائها ، وصادف أن حية قد اجتذبتها شذا ذلك النبات فنسلت واحتفظته واكلته ، ونزعت عنها غلاف جلدها وصارت تجدد شبابها كل عام (\*) .



وعند ذاك جلس جلجامش وأخذ يبكي ويخاطب الملاح : « من أجل من  
يا أور - شابي كلت يداي وأضيت قلبي ؟ لم أحقق لنفسي مغنما ، بل  
حصل على المغنم ( أسد التراب ) ،(\*) . وأخيرا بعد مراحل أخرى من  
السفر وصلا الى الوركاء وشغل جلجامش نفسه بأعمال عمرانية في المدينة  
ليخلد نفسه بالذكر الحسن بعد أن اخفق في نيل الخلود الجسماني .  
وتعيد الاسطر الاخيرة من الخاتمة ديباجة الملحمة .